بيت المقدس

في عصر الحروب الصليبية

للأستاذ أحمد بدوي

لم تكن بلاد الشام يوم هاجمتها جحافل الغرب فى أواخر القرن الخامس مستطيعة أن ترد هذه الجيوش المتدفقة عليها من كل صوب ، فلم تكن وحدة تحت سلطان واحد ، وإنما كان النظام الإقطاعى يمزق شملها ، ويفتت قواها . فسقطت فلسطين وكثير من بلاد الشام فى أيدى الغزاة المتعقبين ، وقاست البلاد المفتوحة من ويلات التدمير والنهب وسفك الدماء ، ما لا يستطيع التاريخ أن ينساه ، وكان نصيب بيت المقدس عندما اجتاحوه سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة من أكبر الأنصباء ؛ فقد جرت به مذبحة من أبشع المذابح التى عرفها التاريخ . يقول ميشو Michaud المؤرخ الفرنسى فى كتابه تاريخ الحروب الصليبية Histoire des Croisades (ج١ ص ٢٣٦) فى حديثه عن بيت المقدس : « سرعان ما صارت المذبحة عامة : ذبح المسلمون فى الطرقات وفى المنازل ، ولم يعد فى بيت المقدس ملجأ للمغلوبين ؛ فبعض الذين فروا من الموت ألقوا بأنفسهم من فوق الأسوار ، والآخرون جروا جماعات يختبئون فى القصور والأبراج ، وبخاصة المساجد ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يفرّوا من أن يتبعهم الصليبيون ، أما وقد صار الصليبيون سادة المسجد الأقصى الذى دافع المسلمون من أنفسهم حيناً فيه ؛ فقد جددوا فيه المناظر المحزنة ، دخله المشاة والفرسان ، واختلطوا بالمنهزمين ، وفى وسط أشنع ضوضاء ؛ كنت لا تسمع إلا الأنين وصيحات الموت ، لقد كان المنتصرون يسيرون على أكوام من الجثث ليتبعوا من يحاول الفرار عبثاً . وقال شاهد عيان هو « ريمون داجيل » ارتفعت الدماء إلى ركب الخيل وأعنتها فى المسجد ، وكل الذين أبق عليهم التعب من الذبح أو أسروا طمعاً

فكان منا أن ملكنا الزمام حين تلاقينا وشب اللهب

فيا ربوعاً دب فيها الخصام تذكرى بالأمس دنيا العرب

تذكرى تاريخ وادى الفرات يوم تحدى صلف « الإنجليز »

فلم تخفه النار والطائرات حين مشى وهو قوى عزيز

ودجلة تهزأ بالماخرات وهلم « عوده » وزوى « همفريز »

واذكرى ما كان فى (ميسلون) يوم أتت (باريس) فى كبرياء

وخلفها الترب الأثيم الخئون قد بثت الغدرة الأبرياء

فانتفضت (جلق) بعد السكون وسجلت تاريخها بالدماء

وإن نسيت النيل وهو الغضوب فاستعرضى أمواجه الثائره

ترى بلاداً ما ثنتها الخطوب عما تريد الأمة الساهره

من الشمال المر حتى الجنوب لما تزل جبارة قاهره

والمغرب الأقصى وأعلامه

و (الريف) تحميه الأسود الغضاب

قد روعت (باريس) أيامه وجللت تاريخها بالضباب

وزلزل الغرب وأصنامه حين تقرتها أكف الشباب

فيا دماء طويت فى الرغام تحية الشعر لزاكى الدم

ويا جراحاً نغرت فى الظلام سوف تعزين على بلسم

ويا حياة لفت بالظلام لا بد من فجر فلا تسأمى

(القاهرة) إبراهيم الوائلى

فى أن يفدوا أنفسهم بفدية كبيرة فتلهم الصليبيون ؛ لقد أكرهوا على أن يلقوا أنفسهم من أعالى البروج والبيوت ، ويكونوا طعاماً للنيران ، وكانوا يخرجونهم من الأقبية وأعماق الأرض ويجرونهم فى الميادين العامة ، حيث يذبحونهم فوق أكداس الموتى ، ولم يشفهم دموع النساء ولا صيحات الأطفال . لقد كانت المذبحة هائلة وكانت الجثث مكدسة ، لا فى القصور ، ولا فى المساجد ، ولا فى الشوارع فحسب ، ولكن فى أخفى الأماكن وأبعدها . ولم تنته المذبحة إلا بعد أسبوع . ويتفق المؤرخون الشرقيون والإفرنج على أن عدد القتلى يبلغ سبعين ألفاً ؛ وبعدئذ أمر من بقى من المسلمين الذين لم ينجوا من القتل إلا ليقعوا فى استعباد مخيف ، أن يدفنوا الأجسام المشوهة لأصدقائهم وإخوانهم ، فأخذوا ينقلون — وهم يبكون — هذه الجثث خارج بيت المقدس ، وساعدهم فى ذلك بعض الصليبيين الذين دخلوا المدينة أخيراً ، لم يظفروا بكثير من الأسلاب ، وأخذوا يبحثون عن بعض الغنائم بين الموتى » . وقال ابن الأثير فى تاريخه الكامل (ج ١٠ ص ١١٧) وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان ، وجاور بذلك الموضع الشريف ، وأخذوا من عند الصخرة نيفاً وأربعين قنديلا من الفضة وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم ، وأخذوا تنوراً من الفضة وزنه أربعون رطلا بالشامى ، وأخذوا من القناديل الصغار مائة وخمسين قنديلا ومن الذهب نيفاً وعشرين قنديلا ، وغنموا منه ما لا يقع عليه الإحصاء » .

خرج المستنفرون بعد سقوط بيت المقدس إلى بغداد ، فحضروا فى الديوان وقطعوا شعورهم ، واستغاثوا وبكوا ، وقام خطيبهم فى الديوان ، فأورد كلاماً أبكى العيون وأوجع القلوب ، وقاموا بالجامع يوم الجمعة ، فاستغاثوا وبكوا وأبكوا ، وذكروا ما دهم المسلمين بذلك المكان المعظم ؛ من قتل الرجال وسبى الحريم والأولاد ونهب الأموال ، ولكن الخليفة لم يكن فى يده من الأمر شيء بل كان يعتمد على السلاجقة ، فأرسل على عجل ثلاثة رجال من حاشيته إلى السلطان بركياروق وأخيه محمد ، وقد كانا معسكرين يتقاتلان عند حلوان ، وتوسل إليهما أن يتركا ما بينهما من النزاع ، وأن يسيروا إلى العدو المشترك . غير أن هذا النداء لم يجد أذناً مصغية ، فسرعان ما كان الإخوان يقتتلان تاركين الفرنج يؤسسون لهم ملكاً ببلاد الإسلام . ولم يصغ أحد إلى تلك الصيحة التى أرسلها الشاعر :

مزجنا دماء بالدموع السواجم ... فلم يبق منا عرضة للمراجم

فإيها بنى الإسلام إن وراءكم ... وقائع يلحقن الذرا بالمناسم

أتهويمة فى ظل أمن وغبطة ... وعيش كنوار الخميلة ناعم

وإخوانكم بالشام يضحى مقيلهم ... ظهور المذاكى أو بطون القشاعم

تسومهم الروم الهوان وأنتم ... تجرون ذيل الخفض فعل المسالم

وتلك حروب من يغب عن غمارها ... ليسلم يقرع بعدها سن نادم

ظل بيت المقدس فى أيدى الصليبيين أكثر من تسعين عاماً . وكان من أكبر أمانى نور الدين محمود أن يسترده للمسلمين، ولكنه مات قبل أن يحقق أمله . فلما ملك صلاح الدين البلاد واتحدت مصر والشام تحت سلطانه صمم على أن يستعيد الوطن المغتصب فأرسل إلى جميع أجزاء امبراطوريته يستنفر الناس لقتال الفرنج وكتب إلى الموصل وديار الجزيرة وبلاد الشام يدعوهم إلى الجهاد ، ويحثهم عليه ، ويأمرهم بالتجهز له ، فأقبلت الجيوش من كل حدب ، ومضى صلاح الدين على رأس جيشه فالتقى بالفرنج عند حطين ، ودارت عندها معركة لم يذق الفرنج لها مثلا منذ قدموا من ديارهم ومضوا بين أسير وقتيل . لم ينتظر صلاح الدين حتى يجمع العدو شمله المبدد ، بل مضى يتابع انتصاراته ، وأخذت مدن العدو تسقط فى يده الواحدة إثر الأخرى ، حتى إذا سقطت عسقلان والبلاد المحيطة بالقدس شمر عن ساعد الجد ، وذهب إلى بيت المقدس يريد فتحه ، وهنا رأى العدو أنه لا قبل له بالجيش الزاحف فاستكان وطلب الأمان ، وفتحت المدينة أبوابها لاستقبال صلاح الدين يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣ ، وأباح السلطان لسكانها الروم والفرنج الذميين أن يعيشوا فى بلاده ، وأن يتمتعوا بحقوقهم المدنية إذا شاءوا ، أما المحاربون فعليهم أن يخرجوا بنسائهم وأطفالهم خلال أربعين يوماً ، على أن يدفع كل رجل عشرة دنانير ، وكل امرأة خمسة وكل طفل ديناراً ،

فإذا لم يستطع واحد أن يدفع فهو أسير ؛ غير أن السلطان لم ينفذ ذلك حرفياً ، فقد دفع هو نفسه فدية عشرة آلاف ، ودفع أخوه الملك العادل فدية سبعة آلاف ، بينما مضى عدة آلاف بدون فداء . وقد حمل الناس والكهنة ذخائرهم من غير أن يتعرضوا لأذىً ما ؛ بل قدمت الدواب لكثير منهم ، ممن لا يجدون ما يركبون .

لقد كانت إنسانية صلاح الدين على النقيض من وحشية أولئك الصليبيين الذين غزوا القدس وفتحوه ، ومن قسوة أمرائهم ؛ فإن كثيراً منهم مضوا إلى أنطاكية غير أن أميرها بيمند طردهم وأبى أن يقبلهم وأغلق صاحب طرابلس مدينته في وجوههم ، فمضوا إلى بلاد الإسلام حيث استقبلوا هناك أحسن استقبال . وقد عدَّد ميشو Michaud أنواعاً من قسوة الصليبيين ضد إخوانهم اللاجئين من بيت المقدس .

أصلح صلاح الدين ما تخرب من المدينة ، ورمَّ ما تهدم من المساجد ، وحكم المدينة حكماً يسوده العقل والحرية ، ثم أمر بإحكام سور بيت المقدس ، وأنشأ مدرسة ورباطاً وبيمارستاناً ووقف عليها الأوقاف الدارَّة .

كان لاستعادة بيت المقدس أثر بالغ في نفس المسلمين ، يقصر القلم دون وصفه . وقد اجتهد المؤرخون في وصف دخول صلاح الدين بيت المقدس ، ولا زالت خطبة الجمعة الأولى التي خطب بها محيي الدين محمد بن الزكي أمام صلاح الدين محفوظة بنصها في كتب التاريخ . أما الشعراء فقد فاضت قرائحهم بتمجيد صلاح الدين فأنشدوه أو أرسلوا إليه ما يعبرون به عن مدى الإعجاب والتقدير ومن ذلك ما قاله الشريف النسابة المصري :

أترى مناماً ما بعيني أبصر القدس يفتح والفرنجة تكسر
ومليكهم في القيد مصفود ولم ير قبل ذلك لهم مليك يؤسر
قد جاء نصر الله والفتـــح الذي
وعد الرســـول فسبحوا واستغفروا
فتح الشآم وطهر القدس الذي هو في القيامة للأنام المحشر
من كان هذا فتحه لمحمد ماذا يقال له وماذا يذكر ؟!
يا يوسف الصديق أنت لفتحها فاروقها عمر الإمام الأطهر
ولأنت عثمان الشريعة بعده ولأنت في نصر النبوة حيدر
ملك غدا الإسلام من عجب به يختال ، والدنيا به تتبختر

ولكن هذا الفتح العظيم على ضخامته لم يله العماد الكاتب من التفكير فيما بقي بأيدي الصليبيين من بلاد ، وأن العبء الملقى على عاتق صلاح الدين هو تطهير البلاد كلها من رجسهم فكتب يقول :

قل للمليك صـــلاح الدين أكرم من
يمشي على الأرض أو من يركب الفرسا
من بعد فتحك بيت القدس ليس سوى
« صور » فإن فتحت فاقصد « طرابلسا »
أثر على يوم «أنطرسوس» ذا لجب وابعث إلى ليل أنطاكية العسسا
واخل ساحل هذا الشام أجمعه من العداة ومن في دينه وكسا
ولا تدع منهم نفساً ولا نفساً فإنهم يأخذون النفس والنفسا

أراد الصليبيون بعد موت صلاح الدين لجمعوا جموعهم ومضوا إلى الشام يعيثون فيه فساداً ، ثم رأوا أن أفضل طريق للتغلب على عدوهم الملك العادل ملك القدس والشام إنما هو ضرب العادل في مكان حيوي منه ، وكانت مصر هي المكان الحيوي المختار . فما إن قوي الصليبيون بأساطيل وأمداد جديدة حتى وجدوا في أنفسهم الشجاعة للنزول على دمياط في سفر سنة ٦١٥ ، ولما سقطت المدينة في أيديهم خاف المعظم عيسى أن يسقط بيت المقدس في أيديهم فمضى إليه وخرَّبه ، وخرج معظم من كان بالقدس من الناس ، ووقع في البلد ضجة عظيمة ، وخرجت النساء والبنات والشيوخ وغيرهم إلى الصخرة والأقصى وقطعوا شعورهم ومزقوا ثيابهم ثم خرجوا هاربين وتركوا أموالهم وأهليهم ، وامتلأت بهم الطرقات ، ولم يبق في القدس إلا نفر يسير ، ونقل المعظم ما كان في القدس من الأسلحة وآلات القتال وقد شق على المسلمين تخريب القدس وأخذ دمياط

عرض الكامل — بعد موت أبيه العادل — أن يرد إليهم مملكة بيت القدس وجميع ما فتحه صلاح الدين على أن يردوا إليه دمياط فأبوا ، ولكن هذا العرض المغري قوبل بالرفض من جانب الصليبيين وطلبوا ثلاثمائة ألف دينار عوضاً عن تخريب القدس ليعمروه بها .

ويقول لان بول في كتابه : تاريخ مصر في القرون الوسطى

(ص ٢٦٣) : إن أعظم فرصة أتيحت الصليبيين قد أضاعوها ، وإن فيليب أوغسطس عندما سمع نبأ رفضهم قال : إنهم مجانين بلهاء إذ يرفضون ممالك مقابل مدينة ولم يلبث الصليبيون أن انهزموا في مصر وتركوها ، فلم تتقدم حملتهم شيئاً

لم يحاول الصليبيون استرجاع بيت المقدس ، ولا يعود ذلك لأسباب حربية فحسب ، ولكن روح الصليبيين قد تغيرت . فصليبيّو سوريا يفضلون مدنهم الساحلية الغنية المليئة بتجار الطليان والتي يحفّ بها الأراضي الخصبة الزراعية على أراض داخلية خربتها حروب الفرنج مع صلاح الدين ، أما الرغبة الملحة في امتلاك مدينة المسيح فقد أطفأتها شهوة الثروة ، ومع ذلك لم تمت هذه الروح وظلت حية في نفوس أساقفة روما الذين دفعوا فردريك الثاني إلى أن يشن حرباً صليبية جديدة فأقلع إلى الشام ونزل بعكة الساحلية سنة ٦٢٥ ، وكانت هذه الفترة التي نزل فيها فترة نزاع بين الكامل وابن أخيه الملك الناصر ، فرأى الكامل بعد مفاوضات بينه وبين الإمبراطور الصليبي أن تعقد بينهما معاهدة ، نزل بمقتضاها سلطان مصر عن بيت المقدس بشرط أن تبقى على ما هي عليه من الخراب ، ولا يجدد سورها ، وأن يكون سائر قرى القدس للمسلمين لا حكم فيها للفرنج وأن الحرم بما حواه من الصخرة والمسجد الأقصى يكون بأيدى المسلمين لا يدخله الفرنج إلا للزيارة فقط ، ويتولاه قوم من المسلمين ، ويقيمون فيه شعائر الإسلام : من الأذان والصلاة . ويقول باركر في كتابه الحروب الصليبية (ص٧٩) : « إن الإمبراطور ظفر بهذه المعاهدة بحسن استخدامه القواه السياسية وباستغلال لما رآه من نزاع بين الملك الكامل ومنافسيه في سوريا »

أغضبت هذه المعاهدة المسلمين واستعظموها ، ووجدوا لها من الوهن والألم ما لا يمكن وصفه ، واشتد تشنيع الملك الناصر داود بدمشق على عمه الملك الكامل ، ونفرت قلوب الرعية وقد رأوا الفرنج يتسلمون بيت المقدس في أول ربيع الآخر سنة ٦٢٦ وجلس الحافظ سبط بن الجوزي بجامع دمشق ، وذكر فضائل بيت المقدس ، وحزن الناس لاستيلاء الفرنج عليه ، وشنّع على هذا العمل فاجتمع في ذلك المجلس ما لا يحصى عدده من الناس وهم في ثورة عنيفة وأنشد الحافظ قصيدة أبياتها ثلاثمائة بيت منها .

على قبة المعراج والصخرة التي ... تفاخر ما في الأرض من صخرات
مدارس آيات خلت من تلاوة ... ومنزل وحي مقفر العرصات

واضطر الملك الكامل إلى أن يرسل رسولاً إلى البلاد وإلى الخليفة لتسكين الناس وتطمين خواطرهم من انزعاجهم لأخذ الفرنج القدس ، بل لقد اضطر الملك الكامل نفسه إلى أن يقنع نفسه بأنه لم يأت أمراً إدّاً ، فكان يقول : إنا لم نسمح للفرنج إلا بكنائس وأديرة خراب ، والمسجد على حاله ، وشعار الإسلام قائم ، ووالي المسلمين متحكم في الأموال والضياع . ولكن ذلك لم يقنع أحداً من المسلمين ، ولعله لم يقنع الكامل نفسه .

وقد انتهز الفرنج ما حدث من الخلاف بعد موت الملك الكامل فعمّروا في القدس قلعة وجعلوا برج داود أحد أبراجها ، وكان قد ترك لما خرب المعظم أسوار القدس فغضب الناصر داود وقد علم بما أحدثه الفرنج ، وحاصر القدس واستولى عليه عنوة في جمادى الأولى سنة ٦٣٧ ، وفي ذلك يقول ابن مطروح :

إذا غدا بالكفر مستوطناً ... أن يبعث الله له ناصراً
فناصر طهّره أولا ... وناصر طهّره آخراً

يريد بالناصر الأول صلاح الدين ، ومنذ ذلك التاريخ وبيت المقدس بيد المسلمين .

أحمد أحمد بدوي
مدرس بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول

الإدارة الهندسية القروية بالقليوبية

تقبل عطاءات بالإدارة ببنها لغاية ظهر يوم ٢٢ / ١ / ١٩٤٩ لعملية الترميمات بعمليات المياه بدائرة مديرية القليوبية ويمكن الحصول على الشروط مقابل مبلغ جنيه مصري واحد وتضاف إليه مائة مليم أجرة بريد وتقدم الطلبات على ورقة دمغة فئة الثلاثين مليما .

٩٧٠